

تشكيل الخطاب الشعري بين المعنى والمقام

قصيدة البردة لكعب بن زهير أنموذجا

م.د. إسماعيل إبراهيم مصطفى برزنجي

جامعة السليمانية – كلية اللغات

E-mail:ismaeel.mustafa@univsul.edu.iq

أ.م.د. كوثر محمد أحمد الجاف

جامعة السليمانية – كلية اللغات

E-mail:kawther.mohamed1975@gmail.com

Abstract:

The subject of this study is in the field of discourse, And specifically how to form a poetic discourse, And looks for the most important factors in this regard, It appeared that the poet in the process of artistic construction of the poem takes the context into account, While relying on his technical experience, This will put him in the process of compatibility between influential.

With regard to a poet who lived before Islam and fed a Jahiliyya culture and he wanted to produce a poetic speech in an Islamic context, It becomes more important in the content of his discourse, While seeking to satisfy the consignee he draws from his accumulated culture, And is in negotiations between the two sides.

Our poet “Kaab bin Zuhair” poet Jahili, But he said poetry before the Messenger of Allah, He had to consider his position and the context of his poem, This has resulted in the poem “AlBurda”, It was discussed during the research on the question of meaning and its relationship to human perception.

مُقدِّمة

إنَّ السِّمَةَ الإِبْدَاعِيَّةَ لِلخِطَابِ الشَّعْرِيِّ جَعَلْتُهُ يُرَاوِعُ فِي البِنَى اللُّغَوِيَّةِ وَيَتَلَاعَبُ بِمَا هُوَ مَأْلُوفٌ مِنْهَا مِنْ خِلَالِ التَّشْكِيلِ المَجَازِيِّ لِنَفْسِهِ، وَتَأْسِيسِ نِظَامِ لُغَوِيٍّ خَاصٍّ بِهِ عَلَى كَافَّةِ المُسْتَوِيَّاتِ، فَلَا يَخْلُو أَيُّ مُسْتَوَى لُغَوِيٍّ لَأَيَّ خِرْفَةِ الشَّعْرِ وَيُعِيدُ صِيَاغَتَهُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى نَسَقٍ مِنَ الإِنْزِيَّاحَاتِ، ذَلِكَ أَنَّ الخِطَابَ الشَّعْرِيَّ اسْتِعْمَالَ خَاصٍّ لِللُّغَةِ مُغَايِرٌ لِلخِطَابَاتِ الَّتِي تَتَّخِذُ اسْتِرَاجِيَّاتٍ إِجْمَاعِيَّةً فِي التَّدَاوُلِ.

عِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، تَتَحَكَّمُ فِي تَشْكِيلِهِ الخَلْفِيَّةُ غَيْرُ اللُّغَوِيَّةِ بِعَنَاصِرِهَا المُخْتَلِفَةِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ وَأَعْرَاضِ المُخَاطَبِينَ، وَالظُّرُوفِ المُحِيطَةِ بِهِ مِنَ اجْتِمَاعِيَّةِ وَنَفْسِيَّةِ^(١)، هَذَا إِضَافَةً إِلَى الخَاصِيَّةِ الوجودِيَّةِ لِهَذَا الخِطَابِ وَهِيَ المَاهِيَّةُ الَّتِي يَتَشَكَّلُ مِنْهَا مُتَمَثِّلَةً فِي اللُّغَةِ بِنِظَامِهَا المُعَقَّدِ وَعِلَاقَاتِهَا المُتَشَابِكَةِ وَالعمِيقَةِ وَمَظَاهِرِهَا المُتَعَدِّدَةِ.

فِي حَالِ كَهَذِهِ يَأْخُذُ الخِطَابُ الشَّعْرِيَّ بِالتَّشَكُّلِ وَيُعِيدُ إِنتَاجَ المَعْنَى لِكَيْتَهُ خِطَابٌ مُرَاوِعٌ يُوحِي وَلَا يُصْرِّحُ، يُشِيرُ إِلَى مُلَابَسَاتِ الأَشْيَاءِ وَلَا يُحَدِّدُهَا، يَبْنِي اللُّغَةَ سَطْحًا بَيْنَمَا يُعمِّقُهَا دِلَالَةً، يَنْزَاحُ عَنِ المَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ لِكَيْتِهِ يَحْمِلُ أَنَسَافَهُ مَطْمُورَةً، إِنَّهُ الخِطَابُ الشَّعْرِيَّ.

وَلَيْسَتْ عَمَلِيَّةُ التَّشْكِيلِ هَذِهِ إِلاَّ نَتِيجَةُ التَّوْفِيقِ بَيْنَ مَا يَحْمِلُهُ الشَّاعِرُ مِنْ دِلَالَاتٍ وَعَوَاطِفَ وَمَعَانٍ شَعْرِيَّةٍ وَبَيْنَ مَا يُنَاحُ لَهُ مِنَ قَوَالِبِ شَكْلِيَّةٍ عَلَى هَيْئَةِ أَلْفَاطٍ لُغَوِيَّةٍ وَعَلَامَاتٍ تُلَبِّسِي الحَاجَةَ إِلَى التَّعْبِيرِ وَتَحْوِيلِ التَّجْرِبَةِ مِنْ حَالَتِهَا المُجَرَّدَةِ إِلَى الوجودِ بِالفِعْلِ، وَهَذِهِ عَمَلِيَّةٌ مُعَقَّدَةٌ مُتَعَدِّدَةُ الأَبْعَادِ وَغَامِضَةٌ، لَهَا جَوَانِبٌ عَدِيدَةٌ وَأَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ أَحَدُهَا إِنتَاجُ تِلْكَ الأَسَالِيبِ وَالصِّيَغِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي تَتَمَخَّضُ عَنِ عَمَلِيَّةِ التَّفَاوُضِ بَيْنَ المُنتَجِ وَالمُتَلَقِّي.

فَالمُنتَجُ يَحْوِضُ تَجْرِبَةً شَعْرِيَّةً تُنْتَمِي إِلَى عَالَمِ الخِيَالِ الوَاسِعِ وَتَعْتَمِدُ عَلَى مَخزُونٍ دِلَالِيٍّ مُكْتَفٍ، تَرَكَمَتْ عَنَاصِرُهُ عِبَرَ الزَّمَنِ وَأَخَذَتْ المَعَانِي تَتَشَكَّلُ وَتَثْبُتُ وَفَقَّ مَا تَعَارَفَ عَلَيْهِ جِيلٌ مِنَ البَشَرِ – عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ – وَصَارَتْ أَفْكَارًا ذَاتَ طَابَعٍ حِسِّيٍّ وَتَرَكَّتْ انطِبَاعَاتٍ وَارْتِبَاطَاتٍ حَوْلَ مَاهِيَّةِ الأَشْيَاءِ المُدْرَكَةِ، وَصَارَتْ هَذِهِ الانطِبَاعَاتُ مَعَانِيًّا وَدِلَالَاتٍ لِحَقَائِقِ تِلْكَ الأَشْيَاءِ.

وَالْمُتَلَقِّي يَعْيشُ فِي مُحِيطٍ تَحْكُمُهُ أَحْوَالٌ وَتُؤَثِّرُ فِيهِ حَقَائِقُ وَتَتَقَاسَمُهُ أبعَادٌ مُخْتَلِفَةٌ، يَتَهَيَّأُ لِتَلَقِّي خِطَابٍ يَحْمِلُ تِلْكَ المَعَانِي لَكِنْ مِنْ مُنْطَلَقِ ثِقَافَتِهِ وَخِبْرَتِهِ الدَّائِيَّةِ رُبَّمَا تَخْتَلِفُ عَنِ ثِقَافَةِ المُنتَجِ وَخِبْرَتِهِ، فَيَلْتَقِي مَعَهُ فِي نُقْطَةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ تُكْمُنُ فِي مَاهِيَّةِ ذَلِكَ الخِطَابِ الشَّعْرِيِّ المُتَشَكَّلِ، مِنْ هُنَا تَبْدَأُ عَمَلِيَّةُ التَّفَاوُضِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّاعِرِ، فَيَقْعُ الشَّاعِرُ بَيْنَ عَالَمِهِ وَعَوَالِمِ مُتَلَقِيهِ لِيَخْرُجَ بِصِبْغَةِ خِطَابِيَّةٍ تَوَافُقِيَّةٍ بَيْنَهُمَا.

^١ . ينظر: الزنكي، د. نجم الدين قادر كريم، نظرية السياق دراسة أصولية، (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦)، ص ٥٤-٥٥، وخطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، (المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١)، ص ٥٢-٥٣.

مِنْ هَذَا الْمُنْطَلِقِ يُعَالِجُ الْبَحْثُ تَشْكِيلَ خِطَابِ شِعْرِيٍّ يَحْمِلُ بَعْدًا جَاهِلِيًّا فِي الشَّكْلِ وَالْمَعْنَى فِي مَقَامٍ إِسْلَامِيٍّ، وَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ وُجُودُ الْمُفَارَقَةِ الْكَبِيرَةِ بَيْنَ الْعَصْرَيْنِ فِي كُلِّ تَفَاصِيلِهِمَا، لِذَلِكَ يُحَاوَلُ حَلَّ الْإِشْكَالِيَّةِ فِي اتِّخَاذِ الصِّيغَةِ التَّوَافِقِيَّةِ بَيْنَهُمَا وَالخُرُوجِ بِنَصِّ يُمَثِّلُ خُصُوصِيَّاتِ الْمَرْحَلَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مِحْوَرَيْنِ مِنَ التَّحْلِيلِ.

المحور الأول

الأولوية للمعنى أم للمقام؟

(١)

استُعمِلَت كَلِمَةُ الْمَعْنَى عِنْدَ النُّقَادِ الْمُتَقَدِّمِينَ اسْتِعْمَالَاتٍ عَدِيدَةً مِنْهَا: الْعَرَضُ الَّذِي يَقْصِدُ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُ أَوْ الْفِكْرَةُ التَّشْرِيْهُ فِي شَرْحِ الْقَصِيدَةِ وَالْأَفْكَارِ الْفَلْسَافِيَّةِ وَالْخَلْفِيَّةِ وَالتَّصَوُّرَاتِ الْغَرِيبَةِ، بَيْنَمَا اسْتُعمِلَت كَلِمَةُ اللَّفْظِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّكْوِينِ الْمَوْسِقِيِّ وَإِقْفَاعِ الْعِبَارَاتِ وَكَذَلِكَ عَلَى الصُّورَةِ الدَّقِيقَةِ لِلْمَعْنَى^(١)، لَكِنَّ نَظْرَةً فَاحِصَةً فِي كِتَابَاتِهِمْ كَفَيْلَةً بِالْبَيِّنَاتِ أَنَّ مَا قِيلَ عَنِ الْمَعْنَى يَرْجِعُ بِنَوْعٍ أَوْ بآخَرَ إِلَى مَقُولَةِ الْجَاحِظِ الشَّهِيرَةِ ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والحضري والبدوي، والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ... وفي صحة الطبع وجودة السبك))^(٢)، فَهُنَاكَ دَائِمًا مَسَاحَةٌ بَيْنَ الْمَعْنَى وَطَرِيقَةِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ، وَبَيْنَ مَا يُقَالُ وَكَيْفِيَّةِ أَدَائِهِ، الْأَوَّلُ ثَابِتٌ وَمَعْرُوفٌ، أَمَّا الثَّانِي فَيَأْخُذُ أَشْكَالًا عَدِيدَةً وَصِيغًا مُخْتَلِفَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْأَوَّلِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قِبَلِ الْاسْتِهَانَةِ بِالْمَعْنَى وَالانْتِقَاصِ مِنْ شَأْنِهِ بَلْ عَلَى الْعَكْسِ تَمَامًا مِنْ ذَلِكَ، هَذَا قَنَاعَةٌ مِنَ التَّقَادِ وَالشُّعْرَاءِ بِأَنَّ الْمَعْنَى ثَابِتٌ وَمُتَحَقِّقٌ لَهُ السَّبْقُ عَلَى اللَّفْظِ كَمَا عَبَّرَ عَنْهُ أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ ((يَحْتَاجُ صَاحِبُ الْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ الْمَعْنَى، وَلِأَنَّ الْمَعْنَى تَحُلُّ مِنَ الْكَلَامِ مَحَلَّ الْأَبْدَانِ، وَالْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى الْكُسُورِ، وَمَرْتَبَةٌ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ))^(٣)، هَذَا الْكَلَامُ تَأْكِيدٌ صَرِيحٌ عَلَى ثَبَاتِ الْمَعْنَى وَتَعْبِيرِ اللَّفْظِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ يَبْقَى الْمَعْنَى جَوْهَرًا وَاحِدًا لِأَكْسِيَّةِ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ فِي التَّدَاوُلِ، فَعَلَى الْمُتَكَلِّمِ أَوْ الْمُعَبِّرِ عَنِ مَعْنَى مُعَيَّنٍ أَنْ يَبْحَثَ فِيمَا يَمْتَلِكُهُ مِنْ مَخْرُوجِ لُغَوِيٍّ لِيَحْصَلَ عَلَى أَدَقِّ الْأَلْفَاظِ دَلَالَةً عَلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى فِي الْخِطَابِ التَّقْلِيدِيِّ يَكُونُ عَادَةً سَابِقًا عَلَى النَّصِّ، بِمَعْنَى أَنَّ الشَّاعِرَ يَنْشِئُ نَصَّهُ لِيُعَبِّرَ فِيهِ عَنِ مَعْنَى مُسَبِّقٍ مُكْتَمَلٍ فِي ذَهْنِهِ وَأَذْهَانِ الْآخَرِينَ وَغَايَتُهُ الْأَوْلَى مِنَ النَّصِّ أَنْ يَسْتَطِيعَ تَوْصِيلَ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمُتَلَقِّي بِأَجْرَدِ الْأَلْفَاظِ وَأَحْسَنِهَا، وَبِمَا أَنَّ الْمَعْنَى دَقِيقَةٌ فِي نَفْسِهِ قَدْ يَأْتِي بِلَفْظٍ لَا يُصِيبُ ذَلِكَ الْمَعْنَى، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَبُو هِلَالٍ نَفْسُهُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ فَيَقُولُ ((إِنَّ الْأَسْمَ كَلِمَةً تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى دَلَالَةِ الْإِشَارَةِ، وَوَاضِعُ اللَّغَةِ حَكِيمٌ لَا يَأْتِي فِيهَا بِمَا لَا يُفِيدُ، فَإِنْ أُشِيرَ مِنْهُ فِي الثَّانِي وَالثَّلَاثِ إِلَى خِلَافِ مَا أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي الْأَوَّلِ، كَانَ ذَلِكَ صَوَابًا))^(٤)، وَفِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ

^١ . ينظر: ناصف، د. مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي، (دار الأندلس، بيروت، لبنان)، ص ٣٨.

^٢ . الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون (الناشر: مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، ١٩٦٥)، ج ٣/ ص

١٣١-١٣٢.

^٣ . العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد مجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم (شركة أبناء شريف الأنصاري،

بيروت، لبنان، ٢٠٠٦)، ص ٦٥.

^٤ . العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد باسل عيون السود (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩)، ص ٣٣.

الفروق الدقيقة بين دلالة لفظين يقول ((كُلُّ اسْمَيْنِ يَجْرِيَانِ عَلَى مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى وَعَيْنٍ مِنَ الْأَعْيَانِ فِي لُغَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقْضِي خِلَافَ مَا يَقْتَضِيهِ الْآخَرُ وَإِلَّا لَكَانَ الثَّانِي فَضْلًا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ))^(١).

ما ذهب إليه أبو هلال في أسبقية المعنى وكتابته في الأذهان هو ما ذهب إليه معظم النقاد القدماء على اختلاف مشاربهم حتى هؤلاء الذين عرفوا بتفصيل اللفظ على المعنى، فلنأخذ قول الجاحظ المذكور فيما يخص طرح المعاني في الطريق، ولنسأل: لماذا يعتقد أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الجميع؟ هل هذا من باب الاستهانة بالمعنى؟ وعدم إفاذته في العمل الإبداعي؟ في جواب هذا نقول: كلا، الجاحظ سائر على اعتقاد العرب بأن المعاني معروفة لدى الجميع في حال وجودها بالقوة في أذهان الناس، مثلاً إنه استقر في مخيلة الجميع ما هي المرءة؟ وما مظاهرها؟ ولا يحتاج الناس إلى تعريف تلك المفاهيم والمعاني لأنهم اكتسبوها من خلال الثقافة السائدة والأعراف الموجودة، لكن من يأتي ويريد أن يعبر عن معنى من تلك المعاني يحتاج إلى مخزون لغوي من الألفاظ لكي يختار منها ما يناسب في السياق للتعبير عن ذلك المعنى، بتعبير آخر، يؤكد الجاحظ على أهمية السياق المقامي في التعبير عن المعنى كي يوفق المتكلم بينه وبين المعنى المعروف، كأنه يقول إذا أراد المتكلم بيان معنى معين ولم يراع السياق المقامي فكلامه زائد بلا فائدة، لأن هذا المعنى معروف لدى الجميع وموجود بالقوة في الأذهان، لكن البراعة يكتب للمتكلم الذي يختار صيغاً مشحونة بالثقافة ومليئة لحاجات السياق وأغراض المخاطبين، إذاً لقول الجاحظ بعد تداولي غير مصرح به فيما يخص صياغة الكلام الدالة على المعاني المعروفة والمطروحة في الطريق.

(٢)

كيف توصل الجاحظ إلى اعتقاد أن المعاني مطروحة في الطريق؟

للإجابة على السؤال يجب أن نتمعن في ماهية الأشياء وعلاقتها بإدراك الإنسان لها، وهناك جانب خفي في المسألة يحتاج التأويل بعض الشيء، كأنه يريد أن يقول إن ((من اليسير أن تُكتسب الحكمة من أفواه الفلاسفة والحكماء، ولكن أمور الشعر منفصلة عن أمور الفلسفة والحكمة، ويقول إن هناك صياغة معينة أو تصوراً خاصاً يصح أن نسميه تصوراً شاعرياً))^(٢) وهذا التصور كامن في قوة ملكة الشاعر اللغوية في كيفية صياغة المعاني في الألفاظ والعبارات المؤثرة من خلال جمال اللغة الشعرية، لأن العلم بالأشياء موضوع في طبائع البشر منذ خلق آدم عليه السلام حينما علمه الله ماهية الأشياء، وهذا يعني أن المعنى في الشعر هو نفسه خارج الشعر، ولا دخل للشاعر في إنتاج المعنى، بل كل ما يعمل هو التعبير عن ذلك المعنى الموجود خارج الشعر، وهذا المعنى الموجود خارج الشعر هو في الأساس ماهية الأشياء، والماهية أو الجوهر يُنال بواسطة الإدراك العقلي المحض وليس هذا عمل الشاعر، بل هو عمل الفيلسوف ذلك أن الماهية متحققة في الأشياء، والأشياء ليست

^١ . المصدر نفسه والصفحة نفسها.

^٢ . ناصف، د.مصطفى، نظرية المعنى، ص ٣٩.

ظلالاً زائلةً للحقائق بل الحقيقةً كامنةً في الإدراك الحسي للأشياء، وهذا أدى بالجاحظ والنقاد الآخرين أن يقتنعوا بالمنطق الفلسفي الذي يقضي بأن جوهر الأشياء لا ينفصل عن تحققها المادي^(١).

من هذا العرض يتبين لنا أن الجاحظ - ومعه معظم النقاد القدماء - لا يعتقدون أن الشاعر بإمكانه إنتاج المعنى من ذاته، لأن المعاني قد تحققت وترسخت في الأذهان مع وجود الأشياء وإدراك الإنسان لماهيتها، وهذا الإدراك عملياً فلسفياً مرّ بها الإنسان من خلال تعرف مهيا الأشياء واكتساب معانيها، لذلك ليس بإمكان الشاعر أن يضيف شيئاً إلى ماهية الأشياء، فبالتالي لا يضيف معنى ولا ينتج دلالة بل صار يُعبّر عن تلك المعاني الموجودة المطروحة في الطريق، وعليه أن يركز جلّ اهتمامه على الصياغة اللغوية للتعبير عن تلك المعاني وإيصالها إلى نفس المتلقي بأحسن صورة مؤثرة

(٣)

إذا كان هذا حال المعنى فما الذي يبقى للمقام في عملية تشكيل الخطاب الشعري؟

في جواب هذا السؤال نقول: يمثل المقام الإطار الذي يُعبّر فيه عن المعاني والبيئة التي تُنجز فيها، وهو الحاضنة الوحيدة التي يتشكل فيها الخطاب، فلا قيمة لتلك المعاني التي تبقى موجودة بالقوة في حالتها المجردة ولا تخرج إلى الوجود من خلال تشكيل خطاب معين ذو أثر جمالي إيجابي، وهذا الخطاب بدوره يخضع لعوامل عديدة ومؤثرات كثيرة في وقت تشكيله، وهي عوامل مختلفة فمنها ما هو ذاتي مرتبط بمنتج الخطاب أو مستقبله من الأهداف والاهتمامات والرغبات والمقاصد والمعتقدات، ومنها ما هو موضوعي يتمثل في الوقائع الخارجية التي يتم فيها القول، كالظروف الزمانية والمكانية والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين وما يحيط بهم من عوامل حياتية أو ثقافية أو اجتماعية أو فكرية^(٢)، ولا يقتصر تأثير المقام في خروج المعاني إلى الوجود لحظة تشكيل الخطاب، بل يمتد إلى ما قبل تشكيله وما بعده، لأن تلك الظروف المؤثرة ليست سكونية بل هي مؤثرات حركية واسعة ضامنة لعناصر عديدة تخص المرسل والمرسل إليه.

لهذا لا يمكن إعطاء الأولوية لا للمعنى ولا للمقام في عملية تشكيل الخطاب الشعري، لأن علاقة جدلية متشابكة تربط بينهما وهما بمثابة طرفي ثنائية تكاملية، إذ لا يرى الخطاب الشعري ثوراً في الوجود من دون التناغم التام بينهما، لكن هنا عندما نحض الكلام بقصيدة مثل البردة تبرز إشكالية أخرى فيما يخص تلك العلاقة الجدلية بين المعاني التي تشكل القاعدة الدلالية للقصيدة وبين المقام الذي عرضت فيه، والإشكالية هي أن المعاني المطروحة في طريق كعب بن زهير هي معان جاهلية نابعة عن قلب الثقافة الجاهلية، أما مقام القول فهو مقام إسلامي بامتياز، فإلى ترى كيف خرج ذلك الخطاب الفني إلى الوجود؟ هذا السؤال وأسئلة أخرى تُطرح عند تدقيق النظر فيه.

^١ . ناصف، د.مصطفى، المصدر السابق، ص ٧٠-٧١.

^٢ . ينظر: عبدالرحمن، طه، البحث اللساني والسميائي، وقائع ندوة الدلالات والتداوليات (أشكال وحدود)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٥١٤٠١، ص ٣٠٢.

المحور الثاني

قصيدة البردة بين المعاني الجاهلية والمقام الإسلامي

(١)

إذا وضعنا التقسيم المتعسف للعصور الأدبية العربية جانباً وأخذنا نص الخطاب المنتج بالتحليل لواجهنا سؤالاً جوهرياً بخصوص هذه القصيدة وهو: هل هي قصيدة جاهلية أم إسلامية؟ في جواب هذا السؤال لا نجد صاحب الرؤية التقليدية للتقد حرجاً في عدها قصيدة إسلامية، ذلك بناءً على التقسيم التقليدي للعصور الأدبية الذي يقضي بمنطق الأحداث السياسية والتقلات التاريخية فيصلاً بينها، وبحسب هذا المنطق فإن هذه القصيدة إسلامية لأنها ولدت في صدر الإسلام وبين يدي الرسول (ص)، والشاعر أراه مسلماً وفيها معان إسلامية، لكن هل هذا كافٍ لعد القصيدة ضمن الأدب الإسلامي ولم نر بعدها قصائد مشابهة لها في البنية والمعاني والألفاظ؟ وماذا نفعل بالظروف المحيطة بشاعرها من خلفية جاهلية؟ حيث بلغ فيها مرتبة الفحول وهو ابن زهير بن أبي سلمى، وكان ينتمي إلى بيت عريق من بيوتات الشعر في الأصول والجذع وفي الأغصان والأفنان^(١)، أهو من المنطق أن نغض الطرف عن كل ذلك وعن حياة طويلة عاشها في الجاهلية وتربى بتربيتها وتغذى من ثقافتها؟ ألا تمر التجربة الشعرية بعملية معقدة وطويلة معتمدة على التراكمات والخلفيات من الصور والمعاني والإدراك والممارسة؟ خصوصاً نحن نعلم مكانة زهير ومدرسه الشعرية، ونذكر حرصه على تسديد خطى كعب نحو تلك المحجة البعيدة من الشعاعية، وفي هذا روايات كثيرة تدل على حرص زهير على استحكام شعر كعب وبلوغه مرتبة الفحول، وما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في نهيه عن قول الشعر خير دليل على ذلك، حيث كان يضربه ويحسبه حتى لا يتكلم بيت شعري سقيم فيروى له ما لا خير فيه، فلما علم أن كعباً برع في قول الشعر بعد اختياره بنفسه أذن له في ذلك^(٢)، إذن قصيدة صادرة عن شاعر كهذا وبهذه الخلفية والحرفية الدقيقة كيف تتجرّد عن ذاتية منتجها وملابس حياته وتراكمات تجربته الشعرية؟ هذا فضلاً عن توقيت نظمها ومكان ولادتها حيث نظمت -لا شك- قبل قدوم الشاعر إلى المدينة معتدراً، أي قبل إعلان إسلامه وفي غير المدينة، لأن الشاعر خريج مدرسة زهير المعروفة بالصناعة الشعرية والمراجعات الكثيرة للقصائد قبل إنشادها للناس، وما زاد من حرص كعب على المراجعة الدقيقة لقصيدته والتأني في إخراجها للعيان هو مقام الإنشاد، حيث يتوجه بها إلى الرسول (ص) طالباً الاعتذار عن سوء القول السابق، فكل هذه الأمور جعلته يستعين بكل طاقته الشعرية المكتسبة من حياته في الجاهلية وتجربته الشعرية فيها.

كل هذا يؤكد أن هذه القصيدة قد نظمت تحت التأثيرات الجاهلية من البنية الفنية والمعاني والألفاظ، باختصار: إن الروح الجاهلية متحكمة فيها خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار حداثة إسلام كعب ومعاداته السابقة له.

^١ . ينظر: الطباع، د. عمر فاروق، ديوان كعب بن زهير (شركة دار الأرقام بن أبي الأرقام، بيروت، لبنان، ١٩٩٤)، ص ٥.

^٢ . ينظر: الأصبهاني، أبو الفرج، الأغاني (إعداد: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤)، ج ١٨، ص ٣٥٨.

وَأَيْسَ هَذَا الْحُكْمُ إِطْلَاقًا عَامًّا وَسَطْحِيًّا عَلَى الْقَصِيدَةِ، بَلْ هُنَاكَ دَلَالٌ كَثِيرَةٌ عَلَى ذَلِكَ تُؤَشِّرُ لِبَعْضِ مِنْهَا، ثُمَّ نَأْتِي إِلَى مُلْزِمَاتِ السِّيَاقِ عَلَى الشَّاعِرِ لِنَرَى فِيهَا بَعْدَ كَيْفِ خَرَجَ بِخَطَابِ شِعْرِي بَيْنَ الْمُؤَثِّرِينَ الرَّئِيسِينَ، وَأَوَّلُ مَظَاهِرِ التَّأثيرَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ فِيهَا هُوَ ابْتِدَاؤُهَا بِمُقَدِّمَةِ طَلِّيَّةٍ، وَالطَّلُّلُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مَرْجِعٌ فَنِّيٌّ جَمَالِيٌّ كَانَ الشُّعْرَاءُ الْجَاهِلِيُّونَ يَتَّخِذُونَهُ تَقْلِيدًا إِبْدَاعِيًّا لِيَعَكْسَ رُؤْيَتَهُمْ، فَكَانُوا يُعْبِرُونَ مِنْ خِلَالِهِ عَلَى تَفَاصِيلِ التَّجَرِبَةِ الشُّعْرِيَّةِ وَعَنَاصِرِهَا الَّتِي تَقُومُ عَلَى ذِكْرِ مُقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ دَاخِلَ فُضَاءٍ مُتَهَدِّمٍ، يَتِمُّ فِيهِ التَّرْكِيزُ عَلَى بَقَايَا النَّارِ مِنْ رَمَادٍ وَسَاقِيَةٍ وَحَيَوَانَاتٍ وَحَشِيَّةٍ تُعَوِّضُ غِيَابَ الْحَبِيبِ وَتُعِيدُ لِلْفُضَاءِ بَعْضًا مِنْ نَصَارَتِهِ وَحَيَوِيَّتِهِ وَمُتَعْنَتِهِ الْبَائِدَةِ^(١).

(٢)

بِمَا أَنَّ الشَّاعِرَ الْجَاهِلِيَّ قَدِ اعْتَمَدَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ بِهَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ فِي الْقَصَائِدِ الطُّوَالِ خُصُوصًا عِنْدَمَا يَكُونُ الْمَقَامُ مَقَامَ الْمَدْحِ لَمْ يَجِدْ كَعَبًا بُدْأًا مِنَ الْإِبْتِدَاءِ بِهَا، وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ لِأَنَّ أَدْبَاً إِسْلَامِيًّا لَمْ يَنْشَأْ بَعْدَ وَالشَّاعِرُ نَفْسُهُ كَانَ حَدِيثَ الْعَهْدِ بِالإِسْلَامِ، وَكَمْ يَجِدُ أَمَامَهُ تَجَرِبَةَ شُعْرَاءِ إِسْلَامِيِّينَ يُنْظَرُونَ لِهَيْكَلِ فَنِّيٍّ جَدِيدٍ لِلْقَصِيدَةِ، لِأَنَّ الشُّعْرَاءَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا قَبْلَهُ وَقَالُوا الشُّعْرَ فِي مَعَانِ إِسْلَامِيَّةٍ شَأْنُهُمْ كَعَبٌ فِي الْإِسْتِقَاءِ مِنْ فَنِّيَّاتِ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَتَعَابِيرِهِ وَمَعَانِيهِ لِأَنَّهُمْ مُخَضَّرُمُونَ أَيْضًا، وَتَرَبُّوا فِي تِلْكَ الْبَيْتَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي أَتَى مِنْهَا كَعَبٌ، وَلَوْ صَارَ سَهْلًا عَلَى الشَّاعِرِ نَظْمُ قَصِيدَةٍ قَصِيرَةٍ أَوْ مَقْطُوعَةٍ فِي مَعَانِ إِسْلَامِيَّةٍ بَعِيدًا عَنْ تِلْكَ التَّأثيرَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ لَكَانَ صَعْبًا عَلَيْهِمْ فِعْلُ ذَلِكَ فِي الْقَصَائِدِ الطُّوِيلَةِ وَفِي مَقَامِ الْإِعْتِدَارِ وَالْمَدْحِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ (ص).

وَلَوْ تَمَعَّنَّا قَوْلَ ابْنِ قُتَيْبَةَ فِي الْإِبْتِدَاءِ بِذِكْرِ الْأَطْلَالِ لَوَجَدْنَا أَنَّ هَذَا التَّقْلِيدَ الْفَنِّيَّ يَحْمِلُ بَعْدًا تَدَاوُلِيًّا يَأْخُذُ مِنَ الْمَقَامِ قُوَّةً وَدَفْعًا، لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْبِدَايَةَ فِي الْغَالِبِ يَأْتِي فِي مَقَامِ الْعِظَمَةِ وَالْهَيْبَةِ عِنْدَمَا يَرِيدُ الشَّاعِرُ مَدْحَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، حَيْثُ يَقُولُ ((سَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ الْأَدَبِ يَذْكُرُ أَنَّ مَقْصِدَ الْقَصِيدِ إِنَّمَا ابْتَدَأَ فِيهَا بِذِكْرِ الدِّيَارِ وَالذَّمَنِ وَالْآثَارِ، فَبِكَاشَا وَخَاطَبَ الرَّبْعَ وَاسْتَوْفَفَ الرَّفِيقَ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا لِذِكْرِ أَهْلِهَا الطَّاعِينَ عَنْهَا، إِذْ كَانَتْ نَازِلَةً الْعَمْدِ فِي الْحُلُولِ وَالطَّعْنِ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ نَازِلَةُ الْمَدْرِ لِانْتِقَالِهِمْ عَنْ مَاءٍ إِلَى مَاءٍ، وَانْتِجَاعِهِمْ الْكَلَاءَ، وَتَتَّبَعَهُمْ مَسَاقِطُ الْغَيْثِ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ وَصَلَ ذَلِكَ بِالنَّسِيبِ، فَشَكَا شِدَّةَ الْوَجْدِ وَالْمَ الْفِرَاقِ، وَفَرَطَ الصَّبَابَةَ وَالشُّوقَ، لِيَمِيلَ نَحْوَهُ الْقُلُوبَ وَيَصْرِفَ إِلَيْهِ الْوُجُوهَ.... فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوْثَقَ مِنَ الْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ عَقَبَ بِإِجَابِ الْحُقُوقِ فَرَحَلَ فِي شِعْرِهِ وَشَكَا التُّسُّبَ وَالسَّهْرَ وَسَرَى اللَّيْلَ وَحَرَ الْهَجِيرَ، فَإِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَوْجَبَ عَلَى صَاحِبِهِ حَقَّ الرَّجَاءِ... بَدَأَ فِي الْمَدِيحِ))^(٢)، وَهَذَا عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ مَا أَرَادَهُ كَعَبٌ فِي نَظْمِ قَصِيدَتِهِ حَيْثُ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ كَمَا يَفْعَلُ الْفُحُولُ مَعَ مَمْدُوحِيهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ لِيُنَالَ رِضَاهُ وَيُمَهِّدَ لِإِعْتِدَارِهِ أَمَامَهُ، وَلَا نَظْنَ أَحَدًا يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ تَعْبِيرٌ عَنْ صِدْقِ التَّجَرِبَةِ الشُّعْرِيَّةِ وَأَنَّ سَعَادًا امْرَأَةً حَقِيقِيَّةً، لِأَنَّ هَذَا التَّوَابُلَ بَعِيدٌ كُلُّ الْبُعْدِ عَنْ غَايَةِ الشَّاعِرِ وَالْمَقَامِ التَّوَابُلِيِّ، لِذَلِكَ تُمَثِّلُ الْمُقَدِّمَةُ الَّتِي تَسْتَعْرِقُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ بَيْتًا مِنْ:

^١ . ينظر: مسكين، د.حسن، الخطاب الشعري الجاهلي رؤية جديدة، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥)، ص ٢٣.

^٢ . ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن عبدالمجيد، الشعر والشعراء، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١)، ج ١، ص ١٨-١٩.

بَأْتِ سَعَادُ فِقْلِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ
مُتَيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُجْزَ مَكْبُولُ

إلى قوله:

أَمَسَتْ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا
إِلَّا الْعِنَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَّاسِيلُ^(١)

تجسيداً فنياً لما اعتاد عليه الشاعر الجاهلي في الابتداء بها في قصائده الطويلة في مقام التعظيم والتبجيل.

وَمِنَ الْمَعَانِي الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي لَزِمَتْ الشَّاعِرَ فِي قَصِيدَتِهِ إِخْلَافُ الْوَعْدِ مِنْ مَحْبُوبَتِهِ، وَهُوَ مَعْنَى مُصَاحِبٍ لِعَرَضِ الْغَزْلِ وَالْمُقَدِّمَةِ الطَّلِيَّةِ، فَكثيراً ما نجدهم يشكون من حبيبتهم إخلاف موعودهن، وكانوا يتهمونهن بالكذب وتبديل الحلال والإفجاع بالمصائب حتى ليظن أن إخلاف الوعد بات سجية لهن، وأن الهجر وترك الحبيب يعاني ألم الفراق وعذاب الابتعاد صار من طبيعتهم، وهذه الشكاية من حرمان الشاعر من الوصول إلى حبيبته يتسق مع وصف الرحلة التي يلاقي فيها الشاعر من مكاره ويتجشم من صعاب، ويشكلان معاً الصورة الكاملة لمعاناة الشاعر قبل الانتقال إلى غرضه الأساس، وهذا ما اتبعه كعب في بنية قصيدته الفنسية سراً على خطى الشعراء الجاهليين الكبار.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ إِخْلَافِ سَعَادٍ وَعَدَّهَا تَشْبِيهًا بِمَا جَرَى تَدَاوُلُهُ عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ فِي مَعَانِي الْإِخْلَافِ وَالتَّبْدِيلِ وَعَدَمِ الثَّبَاتِ عَلَى حَالٍ، وَهُوَ أُسْطُورَةُ الْغُولِ وَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ، وَقَدْ أَخَذَا مَسَاحَةً سَبْعَةَ آيَاتٍ فِي مُقَدِّمَةِ الْقَصِيدَةِ، وَالْمَعْرُوفُ مِنَ الْغُولِ أَنَّهُ حَيَوَانٌ أُسْطُورِيٌّ لِاحْتِقَاقِهِ لَهُ، زَعَمَ الْعَرَبُ أَنَّهُ تَتْرَأَى لَهُمْ فِي الْمَفَازَاتِ وَالْفَلَوَاتِ وَتَظْهَرُ لَهُمْ بِالْوَانَ شَتَّى، وَقِيلَ هِيَ مِنْ مَرْدَّةِ الشَّيَاطِينِ^(٢)، يَقُولُ الْجَاحِظُ ((الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار، ويتلون في ضروب الصور والخيال، ذكرًا كان أو أنثى، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى.... والسعلاة اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتعول لتفتن السفار))^(٣)، وَقَدْ أَخَذَ الشَّاعِرُ هَذِهِ الْأُسْطُورَةَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي تَنَاصُّ مَعَهَا، حَيْثُ يَصِفُ عَدَمَ ثَبَاتِ سَعَادٍ عَلَى حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهَا وَيُشَبِّهَهَا بِالْغُولِ الَّتِي تَتَلَوْنَ بِالْوَانَ شَتَّى:

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا
كَمَا تَلَوْنَ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ^(٤)

١ . ديوانه، ص ١٩ .

٢ . ينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، (طبعة دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣)، ج ١، ص ١٠٢ .

٣ . الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص ١٥٨-١٥٩ .

٤ . ديوانه، ص ١٩ .

أما عُرْقُوبُ فَهُوَ أَيْضاً مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْكُذْبِ وَإِخْلَافِ الْوَعْدِ، وَقَصَّتُهُ مَعْلُومَةٌ مَعَ أُخِيهِ فِي مَسْأَلَةِ التَّحْلَةِ، يَقُولُ ابْنُ مَنْظُورٍ ((وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي خُلْفِ الْوَعْدِ: مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ وَعُرْقُوبُ: اسْمُ رَجُلٍ مِنَ الْعَمَالِقَةِ، قِيلَ هُوَ عُرْقُوبُ بْنُ مَعْبِدٍ كَانَ أَكْذَبَ أَهْلِ زَمَانِهِ، ضَرَبَتْ بِهِ الْعَرَبُ الْمَثَلَ فِي الْخُلْفِ، فَقَالُوا مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ))^(١)، وَجَاءَ فِي قَصِيدَتِهِ:

كَأَنْتَ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٢)

بِهَذَا يَكُونُ قَدْ أَدَّى كَعْبٌ مَعْنَى خُلْفِ الْوَعْدِ فِي صُورَتِهِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْأَفَظِ وَمَعَانِيهِ وَتَشْبِيهِاتِهِ وَأَسْلُوبِهِ الْفَنِّيِّ، لَكِنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُوظِّفَ هَذَا الْمَعْنَى فِي رَجَائِهِ عُقُوقَ الرَّسُولِ (ص)، لِأَنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ نَهَى عَنِ مُخَالَفَةِ الْوَعْدِ وَالْكَذْبِ، فَقَدْ اخْتَارَ هَذَا تَمَاشِيًا مَعَ مُوجِبَاتِ السِّيَاقِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي أَرَادَ إِشَادَ قَصِيدَتِهِ فِيهِ، كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ إِنَّ الْحَيَاةَ الْجَاهِلِيَّةَ حَيَاةٌ ضَلَالٍ وَجَهْلٍ وَبَاطِلٍ تَحْمِلُ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدَ سَيِّئَةٍ، وَأَبَانَ أَنَّهُ يَنْسَبُ مِنْهَا لِأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلْبَقَاءِ فِيهَا، وَيَكُونُ الشَّاعِرُ فِي حَالِ إِشَادِ قَصِيدَتِهِ وَوُقُوفِهِ أَمَامَ الرَّسُولِ (ص) أَبَعْدَ مَا يَكُونُ مِنْ تِلْكَ الْحَيَاةِ بَعْدَ مَا عَادَرَهَا، كَأَنَّ سَعَادُ هِيَ الْمَعَادِلُ الْمَوْضُوعِيَّ لِلْحَيَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ.

(٣)

مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ هُوَ الْحَدِيثُ عَنِ شِقِّ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ لِلتَّشْكِيلِ الْجَمَالِيِّ لِلخِطَابِ الشَّعْرِيِّ، وَيَبْقَى الشِّقُّ الْآخَرُ الَّذِي يُمَثِّلُهُ الْمَقَامُ بِكُلِّ مُحَدِّدَاتِهِ وَمُوجِبَاتِهِ، وَقَبْلَ الْخَوْضِ فِي تَفَاصِيلِ هَذَا يَجِبُ التَّنْوِيهِ إِلَى شَيْءٍ بِخُصُوصِ اسْتِجَابَةِ الشُّعْرَاءِ إِلَى أَحَدِ هَذَيْنِ الطَّرْفَيْنِ الْمُؤَثَّرَيْنِ فِي عَمَلِيَّةِ تَشْكِيلِ الخِطَابِ الشَّعْرِيِّ، فَلَوْ اعْتَمَدَ الشَّاعِرُ عَلَى تَجْرِبَتِهِ الْفَنِّيَّةِ كَثِيرًا وَأَخَذَ يَدُورُ فِي دَائِرَةِ الْمَعَانِي وَالْخَبْرَةِ الدَّائِيَّةِ وَالتَّعَمُّقِ الْمَفْرُطِ فِي الدَّلَالَاتِ وَاخْتِيَارِ الْأَلْفَافِ، وَإِحْدَاثِ فُرُوقٍ تَعَسُّفِيَّةٍ بَيْنَهَا يُصَابُ بِدَاءِ الصَّنَعَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَيَتَابَعُ الْغُمُوضُ فِي الدَّلَالَةِ، وَهَذَا يُضَرُّ بِعَمَلِيَّةِ وَلاَدَةِ التَّجْرِبَةِ الشَّعْرِيَّةِ بِشَكْلِ طَبِيعِيٍّ وَالْأَمْثَلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ لَوْ أَصَرَ الشَّاعِرُ عَلَى الْاسْتِجَابَةِ الْمَفْرُطَةِ لِمَكُونَاتِ السِّيَاقِ وَالْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ عَلَى حِسَابِ مُعْطَيَاتِ التَّجْرِبَةِ الشَّعْرِيَّةِ، وَأَعْرَقَ نَفْسَهُ فِي مُرَاعَاةِ أَغْرَاضِ الْمُحَاطَبِينَ أَوْ خُصُوصِيَّاتِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ الْمُحِيطِينَ بِعَمَلِيَّةِ تَشْكِيلِ الخِطَابِ، لَوَقَعَ فِي فَحِّ التَّقْرِيرِيَّةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ الصَّرْفَةِ الَّتِي تُسَيِّئُ إِلَى الخِطَابِ الْجَمَالِيِّ الشَّعْرِيِّ الَّذِي يَنْطَلِبُ ذَاتِيَّةً كَثِيرَةً، وَرُؤْيَةً خَاصَّةً لِلأَشْيَاءِ وَاسْتِعْمَالًا مُغَايِرًا لِللُّغَةِ، وَالْمَلَاخِظُ فِي قَصِيدَةِ الْبُرْدَةِ هُوَ أَنَّ الشَّاعِرَ وَقَعَ فِي عَمَلِيَّةِ تَجَادُبِ بَيْنِ الطَّرْفَيْنِ الْمُؤَثَّرَيْنِ، فَاسْتَقَى مِنْ تَجْرِبَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ وَلَوْ كَانَتْ جَاهِلِيَّةً، وَرَاعَى مُوجِبَاتِ الْمَقَامِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ فِي عَمَلِيَّةِ تَفَاوُضِيَّةٍ أَنْتَجَتْ خِطَابَهُ الْجَمَالِيَّ بِحَسَبِ فَنِّيِّ عَالٍ.

فَلِنَنْظُرُ إِلَى تِلْكَ الْمُوجِبَاتِ الَّتِي آتَتْ مِنَ الْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ، وَتَدَخَّلَتْ فِي تَشْكِيلِ خِطَابِهِ الشَّعْرِيِّ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ أَهْمُهَا: الْإِطَارُ الْعَامُّ^(٣) الَّذِي أَطَّرَ كَثِيرًا مِنْ خِصَائِصِ الْقَوْلِ الشَّعْرِيِّ، وَأَمَدَ الشَّاعِرَ بِمُسْتَلزِمَاتِ الْبِنَاءِ الْفَنِّيِّ لِقَصِيدَتِهِ، وَيَتَجَلَّى هَذَا الْأَمْرُ كَثِيرًا فِي اسْتِعْمَالِ الْمَعَانِي الْإِسْلَامِيَّةِ بِدِقَّةٍ وَمَهَارَةٍ عَالِيَةٍ مَعَ كَوْنِ الشَّاعِرِ حَدِيثِ الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ، فَقَدْ اسْتَوْعَبَ تِلْكَ الْمَعَانِي

^١ . ابن منظور، اللسان، مج ١، ص ٥٩٥.

^٢ . ديوانه، ص ١٩.

^٣ . ينظر: الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤)، ص ٤٣.

واختارَ مِنْهَا مَا يَنَاسِبُ مَعَ الإِطَارِ العَامِّ لِلْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ، وَمِنْ خِصَائِصِ هَذَا الإِطَارِ أَنَّهُ جَمَعَ مِنَ الصَّحَابَةِ يَتَوَزَّعُونَ بَيْنَ المَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَسَبَقَ أَنْ هَجَا الشَّاعِرُ المَهَاجِرِينَ، لِذَلِكَ يُرَاعِي هَذَا وَيُعَدِّلُ المَوْقِفَ وَيُفْرِدُهُمْ بِمَدْحِهِ، إِذْ يَقُولُ:

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ يَسْطِنُ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤَلُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مَيْلٌ مَعَارِيلُ^(١)

وَمِنْ خِصَائِصِ الإِطَارِ العَامِّ لِلْمَقَامِ أَنَّ أَصْحَابَ الرُّسُولِ (ص) بَدَّؤُوا بِالمُؤَاجَهَةِ المُسَلَّحَةِ مَعَ المُشْرِكِينَ وَخَرَجُوا عَنِ ضَعْفِهِمْ وَدَعْوَتِهِمُ السَّرِيَّةِ، لِذَلِكَ يَسْتَقْبِي الشَّاعِرُ مِنْ مَخْزُونِهِ اللَّغْوِي الأَلْفَاظَ وَالمَعَانِي الدَّالَّةَ عَلَى الشَّهَامَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالاِئْتِصَارِ، وَكَثُرَتْ مَعَانِي الحَرْبِ وَمُتَعَلِّقَاتُهَا فِي القَصِيدَةِ، بَدَلًا مِنَ التَّرْكِيزِ عَلَى رَحْمَةِ الإِسْلَامِ وَسِمَاحَتِهِ وَالمُؤَيَّدَةِ وَالتُّعْمُومَةِ، لِأَنَّ هَذِهِ القِيَمَ كَانَتْ تَسِمُ مَرَحَلَةَ الدَّعْوَةِ السَّرِيَّةِ فِي مَكَّةَ مَعَ أَنَّهَا قِيَمٌ مُتَأَصِّلَةٌ فِي الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ، إِلاَّ أَنَّ الأَجْوَاءَ أَجْوَاءَ الحَرْبِ وَالحُشُونَةَ وَالمُؤَاجَهَاتِ المُسَلَّحَةِ، لِذَلِكَ وَفَّقَ كَعْبٌ فِي الاسْتِجَابَةِ لِمُتَطَلِّبَاتِ السِّيَاقِ وَالمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ فَتَرَاهُ يَصِفُهُمْ بِـ:

شُمُّ العَرَانِينَ أَبْطَالَ لَبُوسُهُمْ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي المِهْيَاجِ سَرَابِيلُ
بِيضٌ سَوَاعِغٌ قَدْ شَكَّتْ لَهَا حَلَقٌ كَأَنَّهَا حَلَقُ القَفْعَاءِ مَجْدُولُ
يَمِشُونَ مَشْيَ الجَمَالِ الزُّهْرِ يَعِصُمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلاَّ فِي نُحُورِهِمْ مَا إِنْ لَهُمْ عَنِ حِيَاضِ المَوْتِ تَهْلِيلُ^(٢)

وَمِنَ اللَّافِتِ فِيهَا يَخُصُّ التَّعَمُّقُ فِي المَعَانِي الإِسْلَامِيَّةِ مَعَ حَدَاثَةِ عَهْدِ الشَّاعِرِ بِالدِّينِ الجَدِيدِ أَنَّنَا نُلَاحِظُ اسْتِخْدَامَ تَقْنِيَّةِ التَّنَاصُّ مَعَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ وَالمَفَاهِيمِ الوَارِدَةِ فِيهَا بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَّةٍ، فَتَرَاهُ كَيْفَ يُشَكِّلُ الصُّورَةَ بِرَاعِيَةٍ فِي وَصْفِ شَجَاعَةِ الأَصْحَابِ وَتَشْبِيهِ قُمْصَانِهِمْ بِمَا نَسَجَتْ عَلَى يَدَيْ نَبِيِّ اللّهِ دَاوُدَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الَّذِي عُرِفَ عَنْهُ إِتْقَانُهُ فِي صِنَاعَةِ دُرُوعِ الحَرْبِ كَمَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِمَّا فُضِّلَ بِهِ يَا جِبَالُ أَوَّيُّ مَعَهُ وَالمُطِيرَ وَالمُنَادِيَ لَهُ الحَدِيدَ (10) أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣).

١ . ديوانه، ص ٢١ .

٢ . ديوانه، الصفحة نفسها.

٣ . سورة سبأ، الآيتان ١٠-١١ .

وَهَذِهِ الدُّرُوعُ كَانَتْ مَصْنُوعَةً مِنَ الحَدِيدِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَارَ (أي الحديد) عِنْدَهُ كَالشَّمْعِ وَقَالَ الحَسَنُ كَالعَجِينِ، فَكَانَ يَعمَلُهُ مِنْ غَيْرِ نَارٍ، وَكَانَ يَفْرَعُ مِنَ الدَّرْعِ فِي بَعْضِ اليَوْمِ، وَقِيلَ مَعْنَى الآيَةِ أَنَّهُ أُعْطِيَ قُوَّةَ خَارِقَةٍ يُنْبِي بِهَا الحَدِيدَ^(١)، وَالسَّابِغَاتُ هِيَ دُرُوعٌ مِنَ الحَدِيدِ، وَالتَّقْدِيرُ فِي السَّرْدِ جَعَلَ الدُّرُوعَ بِغَيْرِ نَارٍ مِنْ دُونَ مُقَارَعَتِهَا بِالحَدِيدِ وَالسَّرْدُ قِيلَ الْمَسَامِيرُ الَّتِي فِي الحَلِيقِ^(٢).

لَمْ نَرَ الشَّاعِرَ يَرْجِعُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ إِلَى المَعَانِي الجَاهِلِيَّةِ، بَلِ اسْتَعَانَ بِمَا تَعَلَّمَهُ حَدِيثًا عَنِ الإِسْلَامِ وَالمَعَانِي المُرْتَبِطَةَ بِالمَفَاهِيمِ القُرْآنِيَّةِ لِأَنَّ المَقَامَ يَتَطَلَّبُ ذَلِكَ، فَلَا يُمَكِّنُ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي وَصْفِ الأَصْحَابِ إِلَى الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي غَادَرُوهَا وَيَبْعَثَ مِنْ جَدِيدٍ مَا فِي تِلْكَ الحَيَاةِ مِنَ العَصَبِيَّاتِ وَالجَهْلِ وَالعَادَاتِ السَّيِّئَةِ، بَلِ اسْتَنَدَ إِلَى الحَيَاةِ الجَدِيدَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَخَذَ مِنْ مَفَاهِيمِهِمُ انْسِيَاقًا وَرَاءَ الثَّقَافَةِ الجَدِيدَةِ، وَإِرْضَاءً لَهُمْ بَعْدَمَا أَثَارَ حَفِيظَتُهُمْ فِي قَصِيدَةٍ سَابِقَةٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مُرَاعَاةِ الشَّاعِرِ لِعَنَاصِرِ السِّيَاقِ المَقَامِيِّ فِي العَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الزَّمَانُ وَالمَكَانُ وَالأَشْخَاصُ وَالمَعْرِفَةُ المُشْتَرَكَةُ.

وَمِنْ مُوجِبَاتِ المَقَامِ وَنَجَاحِ عَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ تَشْكِيلُ خَلْفِيَّةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ لِلبُنَى التَّرْكِيبِيَّةِ وَالسِّيَاقَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، أَيْ الإِنطِلاقِ مِنْ مُعْطَيَاتٍ وَافْتِرَاضَاتٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهَا بَيْنَ طَرَفَيْ الحِطَابِ، وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ حِطَابِ أَدِيبِيٍّ وَغَيْرِ أَدِيبِيٍّ، وَتَتَشَكَّلُ هَذِهِ الخَلْفِيَّةُ التَّوَاصُلِيَّةُ مِنْ خِلَالِ إِصْمَارَاتٍ تَدَاوُلِيَّةٍ أَوْ افْتِرَاضَاتٍ مُسَبِّقَةٍ مَطْمُورَةٍ دَاخِلِ البُنَى المُشْكَلَةِ لِلحِطَابِ لِتَكُونَ أُسَاسًا لِنَجَاحِ التَّوَاصُلِ، وَفِي حَالِ فُقُودَانِ هَذِهِ الأَرْضِيَّةِ المُشْتَرَكَةِ أَوْ ضَعْفِ أُسَاسِهَا يَحْدُثُ سُوءُ التَّفَاهُمِ^(٣)، وَهَذَا مَا تَحَقَّقَ بِالفِعْلِ فِي قَصِيدَةِ البُرْدَةِ حَيْثُ أَرَادَ كَعْبٌ مِنْ خِلَالِهَا تَقْوِيَةَ الأَسَاسِ التَّوَاصُلِيِّ المُشْتَرَكِ الَّذِي أَصَابَهُ الضُّعْفُ نَتِيجَةَ عَمَلِ الوَشَاةِ عَلَى هَدْمِهِ إِذْ يَقُولُ:

أُنَيْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أُوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهَلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الـ قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوَشَاةِ وَلَمْ أَذِئِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الأَقَاوِيلُ^(٤)

تُشِيرُ هَذِهِ الأَبْيَاتُ إِلَى بَيْتِ القَصِيدِ الَّذِي نُظِّمَتْ مِنْ أَجْلِهِ القَصِيدَةُ وَهُوَ تَرْمِيمُ الأَسَاسِ التَّوَاصُلِيِّ المَهْدُومِ بِفِعْلِ الوَشَاةِ، وَطَلَبُ الاعْتِدَارِ لِمَا حَصَلَ مِنْ سُوءِ الفَهْمِ.

^١ . ينظر: القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي (مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٦)، ج ١٧، ص ٢٦٣-٢٦٤.

^٢ . ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر (دار المعارف، مصر، ١٣٧٤)، ج ٢٠، ص ٣٦٠.

^٣ . صحراوي، د. مسعود، التداولية عند العلماء العرب (دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥)، ص ٣٢.

^٤ . ديوانه، ص ٢٠.

وطلب الاعتذار هنا غير مُصرَّح به وغير مُباشر، بل أبقاه الشاعر رهنَ وضعيّة الخطاب والمقام بصيغَةِ القولِ المضمَر، والقولِ المضمَرُ هو كُتلةُ المعلوماتِ التي يُمكنُ للخطابِ أن يحتويها، ولكنَّ تحقيقها في الواقعِ يَنقِي رهنَ خصوصياتِ سياقِ الحديثِ^(١)، وقوله (أنبتُ أن رسولَ الله أوعدني والعفو عند رسولِ الله مأمولُ) من هذا التَّمَطِ الذي أضمرَ فيه طلبُ الاعتذارِ لما حصلَ من سوءِ الفهم، لكنَّ بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ يؤوِّلهُ المقامُ الذي قيلَ فيه، لأنَّ الشاعرَ لم يطلب حاجته بصيغَةِ طلبيةٍ، بل أضمرها في صيغَةِ البناءِ للمجهولِ واسمِ المفعولِ (أنبتُ) و(مأمولُ).

وأخيراً هناك عنصرٌ تداوليٌّ ينالُ أهميّةً فُصوى في عمليّة تشكيلِ الخطابِ انطلاقاً من حقيقة أنّ المعنى يعتمدُ أساساً على علاقةِ العلامةِ اللغويّةِ بمُستعملها^(٢)، وهذا العنصرُ هو مُنتجُ الخطابِ وهو الداتُ المحوريّةُ فيه، لأنّه هو الذي يُنتجُه ويُجسّدُ ذاته من خلالِ بنائه، لذلك شكَّ كثيرٌ من اللغويين في إمكانيةِ دراسةِ المعنى بمعزلٍ عن مُستعمله، لأنّه هو الذي يضعُه في قالبِ الألفاظِ^(٣)، ويختارُ ما يناسبُه من معجمه، فلا يُمكنُ تصوُّرُ إنتاجِ خطابٍ أبداً من دونِ داتيةٍ مُرسِلٍ مُتلفظٍ به تُظهرُ كفاءته وقدرته في التّكليفِ معَ المقامِ التّواصليِّ، وفيما يخصُّ شاعراً مثلَ كعبٍ فقد أثبتَ أهليتهُ لإنتاجِ خطابٍ شعريٍّ يجمعُ بينَ ذاتيتهِ و مؤثراتِ محيطه التّواصليِّ، وبأيِّ حالٍ من الأحوالِ لا يُمكنُ فصلُ التجربةِ الشعوريّةِ للشاعرِ وخبرتهِ وحياتهِ في الجاهليّةِ من قصيدتهِ، فمن دونِ تلكِ المؤثراتِ تفقدُ القصيدةُ جانباً مهماً من جماليّاتها، ولا ننسى أنّ كعباً في حالِ صدورِ خطابه عنه كان شاعراً جاهليّاً بنسبةٍ كبيرةٍ، ونسبةُ الإسلامِ في كينونتهِ كإنسانٍ لم تتجاوزَ عُشرَ تكوينه الدّهنيِّ، وهذه الحقيقةُ تُبرهنُ إنتاجَ هذا الخطابِ الخليطِ بينَ الجاهليّةِ والإسلامِ.

لكنَّ الأساسَ الذي يُستندُ إليه في تأويلِ هذا الخطابِ وما وردَ فيه من معانٍ جاهليّةٍ ولم يعترضْ عليه الرسولُ (ص)، هو قصدُ المتكلمِ، إذ إنّ المقاصدَ تلعبُ دوراً محورياً في بلورةِ المعنى كما هو عندَ المرسلِ، لأنّه لا وجودَ للكلامِ إلاّ معَ وجودِ قصدٍ، وهذا القصدُ يغيّرُ من معانٍ ويُعطي دالاتٍ أخرى للألفاظِ، وهذا ما أدّى ببعضِ علماءِ اللسانيّاتِ أن يذهبوا إلى أنّ العلامةَ اللغويّةَ تتكوّنُ من بُنيةٍ ثلاثيّةٍ هي: الدالُّ والمدلولُ والقصدُ^(٤)، لذلك فإنّه لا بدّ أن يُؤدّي قصدُ المرسلِ دوراً محورياً في عمليّةِ تأويلِ المعنى، لأنّ العبرةَ بالغايةِ التّواصليّةِ التي يُريدُ المتكلمُ تحقيقها في الخطابِ^(٥)، والغايةُ في خطابِ كعبٍ هي حصولُ مرسله على عفوٍ من الرسولِ إليه وقبوله في دائرةِ الإسلامِ، وهذا القصدُ هو الذي غيرَ بعضَ المعاني المتعارفِ عليها وجعلها معاني خاصّةً بالتكلمِ مُتجاوزةً المواضعَ المُسبقّةَ، وقبلها المرسلُ إليه بناءً على المقامِ واعتبارِ قصدِ المتكلمِ متحكماً فيها.

١ . ينظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٣٢.

٢ . ينظر: الشريف، محمد صلاح الدين، أهم المدارس اللسانية - تقديم عام للاتجاه البراغماتي (المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦)،

ص ١٠١.

٣ . ينظر: المصدر نفسه، ص ١٠٠.

٤ . ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ١٨٥-١٨٠.

٥ . ينظر: صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ٢٠٠.

الخاتمة

ثُمَّ لُ قَصِيدَةُ الْبُرْدَةِ حِطَابًا شَعْرِيًّا فَرِيدًا، وَتُؤَشِّرُ لِمَرْحَلَةٍ مَفْصَلِيَّةٍ وَحَسَّاسَةٍ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، إِذْ إِنَّهَا حَصِيلَةٌ مُؤَثِّرِينَ مُتَنَاقِضِينَ (الجاهليَّة والإسلام).

لَكِنَّ مُنْتَجِحَ الْخِطَابِ وَظَفَهُمَا بِشَكْلِ يُكْمِلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فِي الْخُرُوجِ بِصُورَةٍ جَمَالِيَّةٍ وَمُوحِيَّةٍ، بَيْنَمَا رَأَيْنَا الشَّاعِرَ يَسْتَقِي مِنْ مَنْهَلِهِ الْجَاهِلِيِّ فِي الْمَعَانِي وَالْبُنْيَةِ الْفَنِّيَّةِ وَالتَّجْرِبَةِ الشُّعُورِيَّةِ يَضَعُ مُؤَثِّرَاتِ الْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ فِي الْحُسْبَانِ بِنَاءً عَلَى جَدَلِيَّةِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْمَقَامِ، فَقَدْ وَقَعَ فِي عَمَلِيَّةِ تَجَادُبِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ الْمُؤَثِّرَيْنِ فِي إِنتَاجِ حِطَابِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّجَرُّدَ مِنْ سَنَوَاتِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَتَرَكَ الْمَعَانِي فِي ذَهْنِهِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَعَانِي قَدْ تَرَسَّخَتْ فِي الْمُخَيَّلَةِ الْجَمَاعِيَّةِ لِارْتِبَاطِهَا بِمَاهِيَّةِ الْأَشْيَاءِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ خَضَعَ لِمُؤَثِّرَاتِ الْإِطَارِ الْعَامِّ لِلْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ، وَاسْتَفَادَ مِنَ الْخَلْفِيَّةِ التَّوَاصُلِيَّةِ وَحَاوَلَ تَقْوِيَّتَهَا بِالاعْتِمَادِ عَلَى مَبْدَأِ الْقَوْلِ الْمُضْمَرِ فِي طَلْبِهِ الْعَفْوِ مِنَ الرَّسُولِ (ص).

لَكِنَّ الْأَهَمَّ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ هُوَ أَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ عَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحَدَاقَةِ وَالْقُدْرَةِ الْفَنِّيَّةِ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْإِسْتِجَابَةِ لِمُتَطَلِّبَاتِ الطَّرْفَيْنِ، فَقَدْ أَطْلَقَ نَفْسَهُ مِنْ أَسْرِ التَّكَلُّفِ النَّاتِجِ عَنِ الْبَقَاءِ فِي دَائِرَةِ الْمَعَانِي وَمُعْطِيَاتِ التَّجْرِبَةِ الشُّعْرِيَّةِ وَالتَّعَمُّقِ الْمَفْرُطِ فِي الدَّلَالَاتِ وَإِحْدَاثِ فُرُوقٍ تَعَسُّفِيَّةٍ بَيْنَهَا، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُصِرًّا عَلَى الْإِسْتِجَابَةِ الْمَفْرُطَةِ لِمُكُونَاتِ السِّيَاقِ وَالْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ، وَإِعْرَاقِ نَفْسِهِ فِي مُرَاعَاةِ أَغْرَاضِ الْمَخَاطِبِينَ لِيَكُونَ بَعِيدًا عَنِ الْوُقُوعِ فِي التَّقْرِيرِيَّةِ وَالْمَبَاشِرَةِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنِ جَمَالِيَّاتِ الْخِطَابِ الشُّعْرِيِّ، وَخِلَاصَةَ الْقَوْلِ هُوَ أَنَّهُ وَفَّقَ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ مُعْطِيَاتِ التَّجْرِبَةِ الشُّعْرِيَّةِ لَدَيْهِ وَمُوجِبَاتِ الْمَقَامِ التَّوَاصُلِيِّ عَلَيْهِ.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن عبدالمجيد، الشعر والشعراء، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١).
٢. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، (طبعة دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣).
٣. الأصبهاني، أبو الفرج، الأغاني (إعداد: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٤).
٤. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون (الناشر: مصطفى الباني الحلبي، الطبعة الثانية، ١٩٦٥).
٥. خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب (المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١).
٦. الزنكي، د.نجم الدين قادر كريم، نظرية السياق دراسة أصولية (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦).
٧. الشريف، محمد صلاح الدين، أهم المدارس اللسانية - تقديم عام للاتجاه البراغماتي، (المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦).
٨. الشهري، عبدالهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤).
٩. صحراوي، د.مسعود، التداولية عند العلماء العرب، (دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥).
١٠. الطباع، د.عمر فاروق، ديوان كعب بن زهير (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ١٩٩٤).
١١. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر (دار المعارف، مصر، ١٣٧٤).
١٢. عبدالرحمن، طه، البحث اللساني والسيميائي، (وقائع ندوة الدلائل والتداوليات (أشكال وحدود)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٥١٤٠١).
١٣. العسكري، أبو هلال، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (شركة أبناء شريف الأنصاري، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦).
١٤. العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد باسل عيون السود (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩).
١٥. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبدالله بن عبدالحسن التركي (مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٦).
١٦. مسكين، د.حسن، الخطاب الشعري الجاهلي رؤية جديدة (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥).
١٧. ناصف، د.مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي (دار الأندلس، بيروت، لبنان، د.ت).